

أما المقولة الثانية، فتركز على أن التدفق الفلسطيني المؤقت في سيناء يتضمن مخاطر تسرب عناصر «إرهابية» فلسطينية إلى الأراضي المصرية، بهدف تنفيذ عمليات إرهابية فيها ضد أهداف مصرية وإسرائيلية وأجنبية. واللافت للنظر بداية في هذه المقولة أنها تتبنى بالضبط المصطلحات والمضامين نفسها، التي تطلقها الدوائر الإسرائيلية على من يحملون السلاح في مواجهة احتلالها الأراضي الفلسطينية، من أنهم إرهابيون، وهو ما يشمل في الفهم الإسرائيلي - جميع فصائل المقاومة الفلسطينية، دون تمييز بين من ينتمي لـ«فتح» أو لـ«حماس» أو للجبهة الشعبية، أو غيرها.

والأمر الثاني اللافت للنظر هو سعي أصحاب تلك المقولة من المصريين للقيام بنفس ما يقوم به الإسرائيليون، من استغلال كون حركة حماس المسيطرة على غزة ذات توجه إسلامي، لكي يلصقوا بها تهمة الإرهاب دون توافر أي دليل واحد لديهم على صحة ذلك، متناسين تماماً أن حركة حماس من الفصائل القليلة في المقاومة الفلسطينية التي لم يسبق لها منذ نشأتها، أن قامت بعملية عسكرية واحدة ضد أهداف إسرائيلية خارج الأراضي الفلسطينية، كما أنها لم تقم أبداً بضرب أية أهداف غير إسرائيلية بداخل تلك الأراضي. وأن إسرائيلياً واحداً لم يقتل بأيد فلسطينية في مصر منذ توقيعها معاهدتها مع (إسرائيل). كما أن كل المصريين الذين قُتلوا على الحدود مع غزة -عدا واحد فقط- قُتلوا بأيد إسرائيلية وليست فلسطينية، فهل تقوم بعد كل ذلك لمقولتهم قائمة؟

امتصاص النقمة

وفي معرض شرحه لأهمية ما يجب القيام به الآن لتجنب الآثار السلبية لتلك الحملة، عاد الأستاذ فهمي هويدي ليؤكد دعوته بداية إلى تطهير الذاكرة مما جرى خلال الأيام العشرة التي أعقبت اقتحام الحدود، وذلك بالوقف الفوري للتراشق والضجيج الإعلامي، وأن يتم تناول قضايا إعلامياً بمنطق الأعداء، وليس الإنكار، والاحتواء وليس الاستقواء. ويرى هويدي: إذا كانت تلك الحملة المسمومة في وسائل الإعلام الحكومية المصرية تسعى لامتناع النقمة الشعبية المصرية والعربية والإسلامية ضد الحصار المفروض على غزة، فإن كل مثقف و كاتب عربي مطالب بالتصدي لهذه الحملة، التي تقف جنباً إلى جنب مع الاحتلال الإسرائيلي ضد إخواننا في فلسطين، كما أن على كل الإعلاميين العرب أن يعلوا أن حماس ليست هي العدو ولكن العدو هو (إسرائيل). ■

الخطاب الإعلامي الحكومي المصري كان مسيئاً وتحريضياً بشكل لافت للنظر، ولم يراع القائمون عليه التمييز بين الخطأ والجريمة، وذهب بعضهم إلى اعتبار ما حدث غزواً، بل وإلى المساواة بين دخول الفلسطينيين رفح والعريش واحتلال الإسرائيليين لسيناء. واختلط الأمر على البعض الآخر حتى لطموا الخدود وشقوا الجيوب ورفعوا أصواتهم، داعين إلى استنفار المصريين لصد الخطر الداهم الذي يهدد أمن بلدهم وسيادته.

بل إن البعض أقر أن يعتبر عبور الفلسطينيين إلى مصر «مؤامرة»، وفي منطق هؤلاء أن كل شيء كان مخططاً ومعداً له من قبل، وتداخلت الخطوط وتاهت البوصلة، حتى إن بعض الصحف أبرزت - وبعناوين عريضة - بعض الحماقات التي ارتكبت وبعض التصرفات المشبوهة التي وقعت، مثل قيام أحد الشبان برفع العلم الفلسطيني على أحد المباني في الشيخ زويد، واعتداء البعض على عدد من الجنود المصريين، والحديث عن اكتشاف خليتين دخلتا إلى سيناء للقيام بعمليات عسكرية ضد الإسرائيليين. ولوحظ على تلك التغطيات أنها نشرت في الصحف، ولم تصدر بها بيانات رسمية، ما أدى إلى تعبئة قطاعات عريضة من الناس بمشاعر عدائية، فانصب غضبها على الفلسطينيين بأكثر مما انصب على الاحتلال والحصار. وكان لذلك تبعاته أيضاً على علاقات الفلسطينيين المقيمين في مصر بكل المصريين، حتى دار سؤال حائر مفاده: هل يهين الفلسطينيون المقيمون في مصر أنفسهم للجوء جديد؟

مقوتان

وبرؤية تحليلية لمضمون ما ساقته وسائل الإعلام الحكومية المصرية في تلك الحملة الإعلامية، يؤكد الدكتور ضياء رشوان، الخبير بمركز الأهرام للدراسات الاستراتيجية، أنه جرى عبر ما كتب الترويج لمقولتين رئيسيتين وجهتا لجميع المصريين، بغرض «تخويفهم» من أي إظهار للارتباط المصري الحقيقي بالقضية الفلسطينية، وحشدتهم في مواجهة أي تمصير لها أو أي تعريب جديد للسياسة الخارجية المصرية.

المقولة الأولى هي الزعم بأن الفلسطينيين من أبناء غزة - باقتحامهم الحدود المصرية، ودخولهم إلى المدن والمناطق المصرية المتاخمة لها، إنما يتوون إما الاستيلاء على تلك المناطق أو التوطن فيها؛ هروباً من جحيم غزة الذي يعانون فيه طوال الوقت، بل ذهب البعض ممن يروجون لتلك المقولة إلى الادعاء بأن ذلك يتم بالتنسيق مع أطراف إسرائيلية، لها كل المصلحة في تطبيق هذا السيناريو.

ولم يبتعد ممتاز القط، رئيس تحرير جريدة أخبار اليوم، كثيراً عن نهج رفاقه في الأهرام والجمهورية، فكتب تحت عنوان «المصالح قبل العاطفة»: «موقف مصر في التعامل مع الانفلات الفلسطيني، الذي تدعمه وترعاه حماس موقف وطني وقومي، يؤكد من جديد مكانة مصر، وحكمة قيادتها...» ويبدو واضحاً أن البعض من حماس قد اعتقدوا واهمين أن حبال الصبر المصري قد تطول أمام تصرفاتهم الحمقاء... «أعتقد أنه من الضروري أن تقوم وزارة الخارجية المصرية، بإجراء اتصالات مكثفة مع وزراء الخارجية العرب، لإحاطتهم علماً بأي اتفاق يتم التوصل إليه مع القادة الفلسطينيين، سواء من السلطة أم من حماس. بالإضافة إلى رد الفعل المصري في حالة تكرار هذه الأحداث، وكذلك إخطار الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي، لكي يكون هناك غطاء عربي ودولي لأي إجراء تقوم به مصر».

تحليل للأسباب

هذه المعالجة المتحيزة التي تكاد تصل إلى حد التآمر على الجهاد الفلسطيني ومغازلة (إسرائيل) وحلفائها، يعلق عليها بعض المفكرين والأكاديميين، فيفسر الدكتور أحمد يوسف أحمد، مدير معهد البحوث والدراسات العربية، أسباب تلك الحرب الإعلامية بأن الرأي العام المصري تفاعل بقوة مع الحصار الإسرائيلي الجائر على القطاع، واستشاط غضباً من عدم إنسانيته، سواء لأن ثمة تواصل بشرياً حقيقياً مصرياً - فلسطينياً في منطقة التخوم على الحدود بين مصر وقطاع غزة، أم لأن قطاعات سياسية نشطة في الرأي العام المصري تعادي (إسرائيل)، أم لأن أقوى تيارات المعارضة المصرية - وهو تيار الإخوان المسلمين - يعتبر الأب السياسي لحركة «حماس»، التي فرض الحصار عليها أصلاً، أم لأن المصري العادي في النهاية -كعربي وإنسان- لا يملك إلا أن يتعاطف مع الفلسطينيين في هذا الموقف العصيب.

ولذلك ساد شعور بالارتياح عندما تدفق مئات الألوف من سكان غزة في محاولة للتخفيف من وقع الحصار عليهم، وهو ما استشعرت معه القيادة المصرية أن أي خطأ بسيط في إدارة الأزمة، التي نشأت بموجب هذا الاقتحام، يمكن أن يفضي إلى خسارة السياسة المصرية لقطاع كبير من الرأي العام المصري. وهنا - سواء بإيعاز أم بمبادرة منها- هرولت بعض الأقلام - المعروف عنها انتهاز أية فرصة لنقص العرى التي تربط مصر بفلسطين، بل بالعروبة كلها- إلى ركوب الموجة، وشن هذه الحرب الإعلامية الشعواء.

ويرى المفكر الإسلامي الأستاذ فهمي هويدي أن